

الشخصنة لدى المراهقة : دراسة مقارنة بين المراهقة المتمدرسة وغير المتمدرسة

أمينة عيساوي
جامعة وهران 2

الملخص:

في هذه الدراسة لمفهوم الشخصنة في المراهقة، تمت المقارنة بين الشخصنة لدى المراهقة غير المتمدرسة والمراهقة المتمدرسة، وقد تم التوصل إلى أن المراهقة غير المتمدرسة تتشخصن من خلال التوقف عن الدراسة والمكوث في المنزل (أي الفضاء الداخلي الخاص بها) وإتقان الأشغال المنزلية والزواج وإنجاب الأطفال، أما المراهقة المتمدرسة تتشخصن من خلال الخروج إلى الفضاء الخارجي الذي كان مخصصا للذكر وإنهاء الدراسة والعمل.

المراهقة هي مرحلة انتقال تقع بين الطفولة وسن الرشد. حدود هذه المرحلة على وجه التقريب هي بين 12-13 سنة و 18-20 سنة، وهذه الحدود هي صعبة التوضيح بدقة، ذلك أن سن المراهقة ومدتها يختلفان وفقا للأعراف، الجنس، الظروف الجغرافية وبخاصة الأوساط الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وهناك من كان يرى أن المراهقة تمتد إلى غاية 24 أو 25 سنة، أو أنه لا وجود لها في المجتمعات البدائية التي وصفها الأنثروبولوجيون كـ M. MEAD، حيث كان الطفل من خلال طقوس معينة ينتقل مباشرة إلى عالم الراشدين، ويتمتع بالحقوق التي يتمتع بها الأكبر منه ويمارس نفس الواجبات المفروضة عليهم كتحمل مسؤولية عائلة.

و إن عدنا إلى مجتمعنا الجزائري التقليدي⁽¹⁾ فنلك لا يختلف كثيرا عما ذكر سابقا حيث كان الأطفال لا يصبحون حين يكبرون مراهقين، بل يصبحون راشدين. ولكن مع مرور الزمن وحدث

⁽¹⁾ هو نظام يستمد قيمه وضوابطه من الثقافة العربية والإسلامية ولا يقصد به النظام البدائي ولا قديم.

تغيرات على مستوى النظام الاجتماعي الجزائري⁽¹⁾ تغيرت الأوضاع حيث ظهرت المرحلة التي تسمى بمرحلة المراهقة، وما يميزها حاليا أنها أصبحت طويلة المدة. إذ أن الفرد الذي هو ليس طفلا ولا راشدا وجد نفسه قبل أن يدخل إلى عالم الراشدين أمام تبعية للوالدين، المرور بمرحلة تعلم طويلة مما يؤخر دخوله عالم العمل وبالتالي تأخر الزواج الذي كان يعتبر خطوة مهمة لبلوغ سن الرشد كل ذلك يطيل من مرحلة المراهقة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تلك التغيرات مست أيضا وضعية المرأة الجزائرية بشكل عام، وأهم عامل ساهم في حدوث ذلك هو دخول البنت إلى المدرسة، حيث كانت هذه الأخيرة مخصصة للولد فقط أما البنات فكان لا يُسمح لها بدخولها بل تبقى في المنزل لفضاء الداخلي، إذ أنه وقبل بداية هذه مرحلة المراهقة بقليل يبدأ التفريق بين الجنسين بتوجيه كل منهما إلى الفضاء الخاص به: البنت في الداخل وتعليمها الأشغال المنزلية من أجل تجهيزها للزواج، أما الولد فإنه يبقى في الخارج ليتم تجهيزه هو أيضا لحياة ومسؤولية جديتين عليه، ويدخل المنزل إلا للأكل والنوم، كما يُمنع منها باتا التقاء الجنسين وإقامتهما لعلاقات مع بعضهما مهما كان نوعها. ولكن فيما بعد وتدرجيا أصبح من حق البنت التمدريس أيضا مثلها مثل الولد وصار بإمكانها إنهاء دراستها وبلوغ مستويات عليا والحصول على مناصب عمل مشرفة وتقاضي أجر. ولكن بالرغم من ذلك التغير المهم والذي له دور كبير في هذا التطور فيما يتعلق بوضعية المرأة، إلا أنه توجد وإلى يومنا هذا بعض الفتيات اللاتي تُسجن من المدرسة في سن مبكرة بعد تعلمهن المبادئ الأساسية للقراءة والكتابة وأحيانا إن لم نقل غالبا يتزوجن في سن مبكرة. يتم توقيفهن عن الدراسة إما من قبل العائلة التي ترى أن الفضاء الطبيعي للفتاة هو المنزل، أو أن الفتاة نفسها مقتنعة بدور المرأة الأساسي المتمثل في إدارة المنزل والزواج وإنجاب الأطفال والإشراف على تربيتهم وبالتالي تختار المكوث في البيت.

استنادا إلى ذلك أقيمت دراسة على مجموعة من المراهقات غير المتمدرسات والمراهقات المتمدرسات قصد الكشف عن الشخصية لدى كل مراهقة من بين هؤلاء، أي دراسة الكيفية التي تتشخصن (Se personnaliser) الفتاة التي لا تنترد على المدرسة وتركت مقاعدها وهي حاليا مأكثة بالبيت دون أي تكوين مهني، ومقارنتها بالشخصية لدى الفتاة التي تدرس.

كانت تتراوح أعمارهن ما بين 18 و20 سنة، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه تم تحديد مفهوم المراهقة على أنه بالأساس على أنها تلك المرحلة الوسيطة بين مرحلة الطفولة وسن الرشد، والتي يكون فيها

(1) خصوصا بعد الاستقلال سنة 1962.

الفرد لا يزال تحت سلطة العائلة ولا يتعلق الأمر بالسن فقط، لأنه انطلاقاً من مرحلة الرشد يتمكن الفرد من الابتعاد عن سلطة (L'autorité) العائلة واكتساب الاستقلالية من خلال العمل والاعتماد على الذات: "أن يصبح الفرد راشداً هو أن يكتسب الاستقلالية"⁽¹⁾.

أما فيما يتعلق بمصطلح الشخصية فقد تم تبني المعنى الذي أعطاه له TAP.P، أي على "أنها سيرورة التركيب والإثبات النفسي للشخص طيلة حياته وليس فقط أثناء الطفولة أو المراهقة"⁽²⁾ ويكون ذلك من خلال مواجهة ومقاومة بعض المواقف الارتعائية، ويحدث ذلك بالارتباط مع الهوية والعمل على تحقيق الذات من خلال تحديد مشروع حياة.

وعليه كانت الانطلاقة من خلال طرح التساؤلات التالية: كيف نتشخص المراهقة غير المتمدرسة والمراهقة المتمدرسة؟ هل تختلف الشخصية تبعاً للتدريس أو عدم التدريس لدى المراهقات؟ وما هو المشروع الذي تسعى كل من المراهقة غير المتمدرسة والمراهقة المتمدرسة إلى بلوغه؟

استلزمنا الإجابة على هذه التساؤلات الاستعانة ببعض الوسائل، والتي تمثلت في: قصة الحياة (Le récit de vie) كوسيلة للكشف عن ذلك لأنه وبما أن سيرورة الشخصية هي سيرورة معقدة جداً فإنه كان من الأفضل اختيار طريقة كيفية، وبالتالي الوسيلة الأنسب لذلك هي قصة الحياة أين يتم من خلالها دراسة السيرة الذاتية لكل مراهقة مما يساعد على تتبع مسار حياتها وذلك عبر العودة إلى مختلف المراحل العمرية التي مرت بها. كما تم أيضاً الاستعانة بالمنهج المقارن، الذي يتضمن إظهار أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين المجموعتين.

كانت النتائج المتوصل إليها كالتالي:

أشارت كل واحدة من المراهقات المتمدرسات إلى رغبتها في الارتباط برجل يتفهم هدفها في هذه الحياة ألا وهو: إنهاء الدراسة ودخول ميدان العمل في الفضاء العمومي الذي كان مخصصاً للرجال فقط. كما أنه تحاول كل مراهقة شق مسارها المحفوف بالمخاطر بنفسها، وتحديد مصيرها بمفردها، بالرغم من عدم زوال الثقافة الأبوية نهائياً.

⁽¹⁾Fsian (H), Corps, genre et pouvoir, In: Kahloulou (M), (Sous la dir de), 2011, Corporités, Dar Erridoin, Oran, P47.

⁽²⁾Sorde -Ader (F), TAP (P) et Taquinio (C), 2002, Santé, maladie et identité, In: Fischer (G-N), Traité de psychologie de la santé, Dunod, Paris, P160.

المشروع⁽¹⁾ الذي تعمل المراهقة على تحقيقه يتمثل في إنهاء الدراسة والعمل، الأمر الذي يساهم في تحقيقها للاستقلالية وإثبات ذاتها. فعمل المرأة في الخارج له ميول لأن يصير ضرورة حتمية لا بد منها، لأنه يوفر لها الأمن أكثر من الزواج⁽²⁾، الذي لم يعد يحظى بنفس القيمة التي كانت له في السابق، لأن العمل أصبح وسيلة بيد المرأة من أجل مواجهة تقلبات الدهر.

إن ظهور المشروع العملي (Projet professionnel)⁽³⁾ أدى إلى تغير في التمثيل (Représentation) الذي كان يُكونه المجتمع نحو المرأة: إذ حاولت المراهقة المتمدرسة الرفع من قيمة المرأة العاملة من خلال إظهار تمثّل إيجابي لها، وفي نفس الوقت حاولت إحداث قطيعة مع النموذج القديم للمرأة الجزائرية التقليدية: أي الماكثة بالبيت والخاضعة لإرادة الرجل. إنها تحاول استبدال الدور السابق للمرأة داخل الثقافة الأبوية بالتمدرس والطموح والعمل، الذي يسمح للمرأة بشغل مكان (Place) اقتصادي من أجل أن تؤكد ذاتها ككائن له فردانيته، وتحصل على استقلالية أكبر، وهذا كله يؤدي إلى تركيب هوية أنثوية جديدة. إن المراهقة المتمدرسة تعي قدراتها على الانجاز في خارج الفضاء الذي كان مخصصا لها (المنزل)، وهي تسعى لدعم مركزها كشخص له كيانه الذاتي وتحقيق الاستقلالية.

من خلال المشروع العملي تبحث المراهقة المتمدرسة عن التكيف مع تغيّرات الوسط الاجتماعي، تحقيق الذات، التعبير عن تأثير وسلطان الآخرين ومواجهته. كما أنه تحدث شخصتها من خلال الخروج من فضائها، إنهاء الدراسة والعمل ومواجهة المحيط من خلال قول كلمة "لا" له، وقد ظهر ذلك بالخصوص لدى إحدى المراهقات التي أظهرت ردة فعل واستجابة للارتها، من خلال معارضة الأب والمحيط بصفة عامة فيما يتعلق بالتدخل في أمر الزواج وأيضا تحديد عدد الأطفال، وعموما رفض النظرة التي يُكونها المحيط عن المرأة. كل ذلك يساهم في تحقيقها لذاتها وبالتالي تتشخص من خلال مواجهة والقيام بردة فعل اتجاه ما يرتتها. إن ما تسعى إليه المراهقة المتمدرسة هو أن يكون لها وحدها الحق في تحديد مصيرها وتقريره ولا تريد أن تخضع لضغوط المجتمع الذي

⁽¹⁾ المشروع هو صنف أو شكل من توقّع الذات تحت شكل مخطّط حياة ينبغي تحقيقه. "مشروع الحياة يبني تعريف الذات التي يُعطىها المراهق لنفسه من أجل تحديد مصيره الشخصي، من أجل أن يندمج داخل جماعة الكبار، داخل جماعة أو وحدة هؤلاء الذين لديهم الطاقة وشرف تحقيق والقيام بأثار بكلّ حرّية أو استقلالية".

⁽²⁾ لكن مع كل ذلك تبقى فكرة الزواج لدى المراهقة المتمدرسة ولكن يأتي في المرتبة الثانية.

⁽³⁾ حسب Boutinet يتضمن المشروع العملي نوعا من إدراك الزمن المقبل، أين يتمّ تحديد الهدف والوسائل من أجل بلوغه وتفسير الدوافع الكامنة وراء اختيار الهدف.

هو تحت سيطرة عليه الرجل. إنها لم ترض بالخضوع وبهذا فإنها تكافح من أجل صياغة حياتها الخاصة بالطريقة التي تريدها.

إن يُمكن القول بأنه تتعلّق شخصنة المراهقة المتمدرسة بالمشروع العملي، بمعنى أنّ هذا الأخير هو في مركز حركة الشخصنة، وكانت هذه الشخصنة من خلال:

- بحث عن قيمة.
- بحث عن قدرة (Pouvoir).
- بحث عن الاستقلالية.
- بحث عن تحقيق الذات.

إنّ ما سبق ذكره فيما يتعلّق بالشخصنة لدى المراهقة المتمدرسة لا يتطابق مع ما هو متداول في النظام التقليدي، سابقا كان للمنزل مكانة مهمة في حياة المرأة، كما أنه لا يوجد دور آخر خاص بالمرأة إلا ذلك الذي يتمثّل في دور الأم، أي أنّ المرأة تتشخصن (Sepersonnaliser) من خلال تحوّلها إلى أم: "هذا الكائن الذي هو من جنس أنثوي مصيره محدد: "الأمومة"، ويحدث ذلك بطريقة شرعية أي عن طريق الزواج"⁽¹⁾.

في النظام التقليدي يظهر طابع الموضوع (Objet) للمرأة فيكونها مُرتبنة (Aliénée) وخاضعة لإرادة الرجل، وأنّ مصيرها خُطّط من قبله. وهذا ظهر بوضوح فيما يتعلّق بالمراهقة غير المتمدرسة أين تبيّن أنمسير كلّ منهنّ محدد مسبقا من قبل الثقافة الأبوية التقليدية، حيث أنّ توقّفها عن الدراسة كان بتأثير من المحيط⁽²⁾ وإن كانت قد صرّحت بأنها توقّفت بإرادتها. قامت بذلك من أجل تحقيق الاندماج الاجتماعي، حيث أنّ في هذا المجتمع المفعم بالتقاليد الجماعية هي التي تشرف وتوجّه الفرد وهذا الأخير ما هو إلا جزء بسيط من الجماعة. لكن كانت المرأة ولا زالت إلى يومنا هذا تخرج من هذا الارتهان (Aliénation) وبالتالي من كونها موضوع (Objet) من خلال إنجابها لأطفال ذكور، وعندما يكبرون تتمتع الأم بقوة وقدرة (Pouvoir) وتحصل على احترام المحيط لها وتحقّق استقلاليتها وذاتها.

⁽¹⁾Fsian (H), Le projet professionnel chez l'adolescente algérienne, In: CHERIF (H) et Monchaux (PH), (Sous la dir de), 2007, Adolescence quels projet de vie ?, Centre de Recherche d'Édition et d'Application Psychologiques (CREAPSY), Alger, p39.

⁽²⁾في هذه الحالات كان هناك تأثير للمحيط ولكن بطريقة غير مباشرة، إذ أنّه كانت كل مراهقة غير متمدرسة تبحث عن الاندماج الاجتماعي، والوسيلة التي رأيته مناسبة هي التوقف عن الدراسة والمكوث في البيت.

تتشخصن المراهقة غير المتمدرسة من خلال التوقف عن الدراسة والبقاء في المنزل وتعلم وإتقان الأشغال المنزلية، الزواج من رجل تمت الموافقة عليه بشكل إيرادي، ولكن مع الأخذ بعين الاعتبار رأي الأب كالموافقة على رجل يقترب في أخلاقه وعمله من أخلاق وعمل الأب، وأن الزواج به يرضى به هذا الأخير. كما تتشخصن من خلال إنجاب أطفال خصوصا من جنس ذكرى⁽¹⁾، فمثلا إحداهن أظهرت ميولها لإنجاب أطفال من جنس أنثوي ولكن مع وجود ولو ولد واحد بينهما لأن المحيط يحبّ الجنس الذكري. أما مراهقة أخرى فصرحت أنها لا تحبّ الجنس الأنثوي بحجة أن تربية البنات صعبة، ولكن في الواقع هناك مواجهة للمرأة ضد المرأة⁽²⁾. كما تحلم بتربية أطفالها تربية حسنة والعمل الجاد علينجاحهم في المستقبل من خلال حثهم على إتهائهم للدراسة والعمل في مهنة مشرفة. من جهة أخرى يظهر تغيير واضح في النظام التقليدي والذي ساهم في شخصنة المرأة حاليا بشكل آخر إنه: تحديد عدد الأطفال بشكل شخصي.

كل مراهقة غير متمدرسة قبلت الحياة كما فرضها عليها المجتمع وارتضاها لها. كذلك فإنها تميل إلى تقبل أحكام المجتمع ولا تمنع في أن تخضع حياتها للمؤثرات الخارجية عن ذاتها، فهي بذلك تسير على نمط الحياة المنزلية ذات السلطة الأبوية. تظهر هذه المراهقة وكأنها في وضعية سلبية أي تتأثر ولا تؤثر، ولكن في الواقع بالرغم من هذه السلبية فإنها تختار العناصر التي تستخدمها لصالحها مثلا: العمل على إتقان الأشغال المنزلية، كسب رضا عائلة الزوج والتكيف معها، الأمر الذي يسمح لها بالتكيف مع الزوج في حد ذاته إضافة إلى إنجاب الأطفال. كما لوحظ فيما يخص الزواج أن المراهقة غير المتمدرسة تريد في المستقبل مطابقة الزوج وطاعته والسير على نهجه وإرشاداته. وبسبب هذا التطابق فإنها في المستقبل ستشعر بالرضا وتحقيق الذات، وبالتالي هذا يعتبر نجاحا بالنسبة لها.

إنها شخصنة من خلال الخضوع والبحث عن التطابق مع المحيط: إذ أنه تحاول المراهقة غير المتمدرسة إثبات ذاتها من خلال البحث عن التطابق مع الثقافة الأبوية، حيث أنها قد استدخلت (Intérioriser) الثقافة التي تربت داخلها وتركبت شخصيتها انطلاقا من أوامرها وضوابطها

⁽¹⁾ لقد تحدّثت Lacoste-Dujardin عن إنجاب ولد أو بنت: "إن مجيء بنت في الجزائر يحدث في الصمت... هي لفتني تلمسان أو قرعة في قسنطينة... حتى المؤلدة تحزن عندما تُساعد على ميلاد بنت فقط... بالنسبة للأب عندما لا يسمع الزغاريد التي تُوحى بميلاد ولد، فإنه غالبا ما يذهب ليُخفّف عن نفسه، يتعرّى في المقهى" (La Coste –Du Jardin (C), 1985, p57).

⁽²⁾ هذا ما أشارت إليه Camile Lacoste Dujardin في كتابها « Des mères contre les femmes ».

وبالتالي سنتشخص تبعاً للحدود التي وضعتها هذه الثقافة، ولهذا لا نجد لديها إحساساً داخلياً بالسلبية ولا بالارتهان⁽¹⁾.

إنَّ شخْصنة المراهقة غير المتمدرسة تتعلّق بالأساس بصيرورتها أمّا لأطفال ناجحين في المستقبل. حيث أن تكون المرأة أمّاً لأحد ما هو مشروع الهوية الاندماجي لكل امرأة تنتمي إلى النظام التقليدي، كما أنَّ الزواج كان ولازال الشرط الوحيد لتطورها وبلوغها مشروعها المتمثل في الأمومة. إنه مشروع الهوية الذي يستمد قوته ليس فقط من رغبة الفتاة لكن من المشروع الإيديولوجي لكل شخص من جنس أنثوي.

ما يمكن الإشارة إليه بناء على ما سبق ذكره هو أنَّ الشخْصنة لدى المراهقة غير المتمدرسة والمراهقة المتمدرسة تشترك في كون كل واحدة منهما لديها رغبة في الزواج وإنجاب الأطفال مع تحديد العدد مسبقاً، ولكن هذا الهدف في حدّ ذاته الذي يتمثل في الزواج يختلف لدى كل منهما، أين نجده في المرتبة الثانية مع اختيار زوج متفهم لعمل المرأة وهذا ما لوحظ لدى المراهقة المتمدرسة، أما المراهقة غير المتمدرسة فإنّه يعتبر هدفها الرئيسي، كما أنه كل منهما ترغب في أن تصبح أمّاً، وهذا يحيلنا إلى أنه في النظام الاجتماعي التقليدي لا يوجد دوراً آخر مخصّصاً للمرأة غير دور الأم، للمرأة مصير محتوم أي أن كل فتاة ستصبح أمّاً في المستقبل، وبطبيعة الحال هذه الحتمية لا تكون إلا عن طريق الزواج: "الزواج هو المرحلة الاجتماعية التي تسمح بالنمو وتحقيق المشروع الأمومي"⁽²⁾ هذا من جهة، ومن جهة أخرى يلاحظ بقاء لآثار الثقافة الأبوية رغم التطور الذي حدث في النظام التقليدي، إذ يظهر ذلك لدى المراهقة المتمدرسة من خلال تمسكها بفكرة الزواج وإن كان كهدف ثانوي.

وهذا كله يحيلنا إلى الإشارة إلى أن الشخْصنة لدى المراهقة غير المتمدرسة والمراهقة المتمدرسة ترتبط بالبنية الاجتماعية، طبيعة العلاقات الاجتماعية، التنشئة الاجتماعية التي أنشئت عليها كل مراهقة داخل محيطها، الأعراف، التقاليد وكذلك يرتبط بالعوامل الاقتصادية، كما ترتبط أيضاً بالعوامل الدينية والعوامل الفكرية التي تحوزها المراهقة. هذا يعني أن الشخْصنة تختلف من مراهقة إلى أخرى باختلاف جميع العوامل المذكورة سابقاً. إذ يمكن أن نتشخص المراهقة غير المتمدرسة من خلال الزواج وإنجاب الأطفال، في حين المراهقة المتمدرسة نتشخص من خلال الدراسة

⁽¹⁾ لا تشعر المرأة أنها خاضعة لإرادة الرجل وأن مصيرها حدّد منذ ميلادها من قبل الثقافة

⁽²⁾ Cherif (H) et Monchaux (PH), Op.cit, p39.

والعمل والقيام بأمر كانت خاصة بالرجل مثل دخول المرأة في سلك الأمن وغير ذلك من الأعمال التي كانت مقتصرة على الرجل فقط. ولهذا لا يمكن القول أن المراهقة غير المتعدسة لم تحقق استقلاليتها ولم تتشخص، لأن ذلك لا يرتبط بكون المرأة تستقل وتتخصص من خلال قيادة السيارة أو العمل كشرطية أو السفر لوحدها أو ممارسة رياضة معينة أو إنهاء دراستها والاستقلال في عملها، ولكن تتشخص عندما تتمكن من القيام بفعل ما اختارته بإرادتها ودون أن يفرضه عليها أحد من المحيطين بها وكانت مقتنعة به، وبالتالي تتمكن من تحقيق التكيف الاجتماعي وتحقق ذاتها.

المراجع:

1. Addi (H), 1999, Les mutations de la société algérienne: famille et lien social dans l'Algérie contemporaine, Editions la Découverte, Paris.
2. Fsian (H), Le projet professionnel chez l'adolescente algérienne, *In*: Cherif (H) et Monchaux (PH), (Sous la dir de), 2007, Adolescence quels projet de vie ?, Centre de Recherche d'Édition et d'Application Psychologiques (CREAPSY), Alger.
3. Fsian (H), 2006, Identité féminine-Identité masculine: A propos des relations hommes/femmes en Algérie, Thèse de doctorat d'Etat en psychologie clinique, Université d'Oran.
4. Fsian (H), Y-aurait-il une question du père à l'adolescence dans l'éclosion de la violence en Algérie, Département de psychologie, Oran.
5. Fsian (H), Corps, genre et pouvoir, *In*: Kahloula (M), (Sous la dir de), 2011, Corporéités, Dar Erridoine, Oran.
6. LaCoste-Du Jardin (C), 1985, Des mères contre les femmes: maternité et patriarcat au Maghreb, Editions la Découverte, Paris.
7. Malweska-Peyre (H) et TAP (P), (Sous la dir de), 1991, La socialisation de l'enfance à l'adolescence, 1^{ère} éd, PUF: Presses Universitaires de France.
8. Sordes-Ader (F), Tap (P) et Taquinio (C), 2002, Santé, maladie et identité, *In*: FISCHER (G-N), Traité de psychologie de la santé, Dunod, Paris,
9. Tillon (G), 1966, Le harem et les cousins, Editions du seuil, Paris.